آدم عليه السلام
والترقي في منازل المعرفة

(الله) سبحانه وتعالى عزَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه، لفظ الجلالة هو أصل الأسماء، وأولها، ومصدرها، كما أنه مصدر اللغات والألسنة، وقد ذكر ٢٦٩٩ مرة في القرآن وهو رقم لا يقبل القسمة على أي عدد لوحدانيته[١]، و(الله) اسم غير مشتق، لأنه الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية.

وهو الاسم الدال على الذات الإلهية، الجامع لصفات الربوبية، ولا يطلق على غيره ـ سبحانه وتعالى ـ، ولا يثنى ولا يجمع، ومن خصائصه إذا حذف منه حرف لم يتغير فهو: «الله، لله، له، إله، الهاء».

(الملائكة) هي كلمة إسلامية لم تستخدم في العربية قبل أن يرد ذكرها في القرآن، وأول ما ذكرت في سورة «المدثر» وهي من «مألك» ثم صارت «ملأك» والجمع «ملائكة»، ولم يذكر القرآن من أسمائهم سوى «جبريل وميكال».

(آدم) اسم سرياني وهو عند أهل الكتاب (آدام) بإشباع فتحة الدال، وهو التراب بالعبرانية تسمى (آدم) به، وقيل هو من أدمت بين الشيئين إذا خلطت بينهما لأنه كان ماء وطينًا فخلط دمًا.

(ابليس) فمن (أبلس) من رحمة الله سبحانه أي يئس منه، وكان اسمه (عزازيل) والجمع: أبالس وأبالسة ـ المعجم الوسيط ـ وقد ذكر في القرآن إحدى

---

(١) هذا العدد (٢٦٩٩) من الأعداد الأولية لا يقبل القسمة إلا على نفسه ويكون الناتج (واحدًا)، وفيه إشارة إلى الوحدانية وأنه سبحانه وتعالى «واحد» لا شريك له.

عشرة مرة، وأولها في سورة (ص) في سياق قصة آدم عليه السلام وإلزام الملائكة بالسجود تشريفًا له كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (ص: ٧٣-٧٤).

(الشيطان) كلمة عربية قديمة والأصل (شطن) بمعنى (بعد)، وإذا جاء معرفًا (الشيطان) فهو إبليس وإذا جاء منكر (شيطان) فهو واحد من جنس الشياطين.

وقد ذكر (الشيطان) في واحد وستين موضعًا، وأما الجمع (شياطين) فقد ذكر في ثمانية عشر موضعًا وهم من (الإنس والجن)، وشياطين الإنس أشد كيدًا وأعظم إفسادًا لأنهم يملكون مزيجًا من الشرور المرئية والغير مرئية.

(حواء وقابيل وهابيل) وهي من الأسماء التي لم ترد صراحة في القرآن، وقد سميت «حواء» بذلك لأنها أم كل حي، ويقول السيوطي في (الإتقان): «أنه لم يذكر اسمها لأنها معروفة وليس هناك غيرها في أول الخلق»، وهي من الفعل «حوى» لأن آدم احتواها بحبه وعطفه، وأما «قابيل» أي قايين بالسريانية ومعناه «تعتني».

و«هابيل» ومعناه «زائل» وقصته مع أخيه ترمز إلى الصراع العنيف بين قوتي الخير والشر، وكانت أول جريمة نكراء تحدث في الأرض أريق فيها الدم البريئ الطاهر.

وقد وردت قصة الخلق في القرآن كثيرًا، لتحذرنا من حيل الشيطان وأساليب خداعه بالوعود والأماني كما سيطر على آدم وزوجه - عليهما السلام - بالكلام المعسول والخداع بالحجج الباطلة، فاستجابا له وخالفا أمر ربهما سبحانه وتعالى، وهذا ما عبر عنه القرآن: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ

وَأَقْل لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (الأعراف:٢٢)، «غره يغـره غرارًا وغرورًا» أي خدعه وأطمعه بالباطل.

ومن فضله سبحانه على عبـاده أن بيَّن لهم أن من آمن وقام بحقوق العبودية كما جاءت في الكتب السماوية التي نزلت على الرسل، فإنه لا سلطان للشيطان عليهم، كقـوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل:٩٩-١٠٠).

ومن أفضل النعم أنه ـ سبحانه ـ من لطفه ورحمـته، يقبل التوبة لمن استغفر وأناب بالدعـاء والاستغـفار، وأنه لا تزر وازرة وزر أخـرى وهذا منتهـى العدل الإلهي، وليس كما تدعى الإسرائيليات بأن مـيراث البشرية لخطيئة آدم عليه السلام لأنه أكل من شـجرة الخـلد، والتي أغرته على ذلك حواء وقـد أغرتهـا الحية ودلتـها على هذه الشجرة.

والقرآن يؤكـد أن الشيطان هو الذي وسـوس لهما مـعًا، وأنهمـا تابا وقبل سبحانه تـوبتهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣).

وهذا ينفي ما تقوله العقائد الفـاسدة، كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:٣٧)، أي أنه سبحانه ألهمه هذه الكلمات فدعا بها مع زوجه فقبل توبتهما، لأنه التواب على عباده والرحيم بهم.

ومن أهم الأسباب التي جـعلت القرآن يقص علينا قصـة الخلق في أكثر من موضع، وذلـك لبيان أن خلـق الكائنات يسيـر على نمط واحد لا يتـغير بـدايته زوجين (آدم من طين ثم حواء من ضلعه)، ومنهما انحدرت البشرية.

وهذا ما قـرره العلم وبعد نزول الـقرآن بأكثـر من ألف عام، وكـما أخـبر الحق سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس:٣٦).

﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾، أي من المخلوقات العجيبة الغريبة ـ كما يسمونها قديمًا ـ أو من الكائنات الحية الدقيقة والتي تعيش في المواد المتحللة العفنة والتي تحت الميكرسكوب في نقطة واحدة بالآلاف وكلها تتنفس وتتغذى وتتكاثر وتتحرك وتحس كأي كائن حي، وإن كانت بصورة بدائية بسيطة، سبحان الله . . !! ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤).

ومن صور الإعجاز العلمي في القرآن أنه ينفي ما يسمى «الخلق العضوي» أو «التوالد بدون لقاح» وكان هذا الاعتقاد سائدًا لوقت قريب عند علماء الغرب، وجاء علمهم الحديث ليثبت خطأهم، ويؤكد ما أثبته القرآن بأنه ليس في مقدور أحد كائنًا ما كان أن يكون خالقًا ـ حاشا لله ـ لأي مخلوق ولو لهذه الكائنات الدقيقة، لأن الخلق هو قدرة اختص الله بها تعالت ذاته العلية، فالله سبحانه هو الخالق وليس هناك خلق سواه سبحانه، وأن شعلة الحياة لا يمكن أن توقدها إلا شعلة الحياة وهي ليست من العدم بل من زوجين إثنين وحتى يبقى الإفراد لله وحده الخالق ـ جلَّ وعلا ـ.

ولهذا يتوجه القرآن بسؤال الكافرين في كل زمان إلى يوم القيامة: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (لقمان: ١١).

وهكذا عندما يذكر القرآن قصة الخلق بهذا الإعجاز المبهر متفقة مع ما لم يحرف من الكتب السابقة، ثم يؤكد العلم ذلك ليكون إثباتًا لإعجازه ـ الذي لا يحتاج إلى دليل ـ وعلى صدق المعصوم ﷺ وقد بين القرآن أنه سبحانه خلق آدم عليه السلام بعد أن خلق جميع الكائنات، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٩- ٣٠).

وهكذا شاءت حكمة الله سبحانه أن يجعل في الأرض خلقًا يخلف بعضهم بعضا على هيئة الأمم والأحقاب والأزمنة.

وعلى الرغم من التقدم العلمي المذهل إلا أنه كثيرًا ما يخطئ عندما تسيطر عليه المادية الجامحة، فيفترض افتراضات ساذجة الغرض منها نفي القدرة الإلهية ـ حاشا لله ـ فهو يفترض أن الحياة بدأت ذاتيًا بمحض الصدفة من مواد غير حية دون تخطيط مسبق، بواسطة تفاعل أشعة الشمس مع طين الأرض، فتكونت أول خلية حية على سطح الأرض، ومع أنهم يستدلون على نظريتهم الساذجة بأن جسم الإنسان يتشابه إلى حد كبير مع طين الأرض، إلا أنهم يقفون عاجزين أمام كيفية تشابه الشفرة الوراثية في جميع بني البشر والتي تؤكد أنها مستمدة من أب واحد وأم واحدة، كما أخبر سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١)، .

وهكذا يتضح لكل عاقل خطأ نظرية (التطور العضوي) لسذاجتها وعدم مصداقيتها، ويؤكد أن خلق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين، وأما السر في تحويل الطين إلى هذه الأجهزة المعقدة في جسم الإنسان فإنه من طلاقة القدرة الإلهية والتي أخبر عنها القرآن: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ (السجدة: ٧).

وقد تحداهم القرآن بأنهم مهما بلغوا من العلم، فإنهم لن يستطيعوا أن يخلقوا أقل مخلوقاته كالذباب والبعوض والعنكبوت والتي ضرب بها الله المثل في محكم التنزيل، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣).

وأما الحكمة من خلق البشر فقد بينها القرآن في أكثر من موضع، وذلك لأن فيهم المطيع والعاصي فيظهر العدل بينهم، وأما المطيع فيوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والعلماء والعاملون والأولياء والمقربون والمحبون الخاشعون له تبارك وتعالى، وهم المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

وتلك هي الحكمة الحقيقية في إهباط آدم عليه السلام للترقي في منازل المعرفة، ولتكتمل له مراتب العبودية ثم لذريته من بعده، وهذه العبودية هي أعلى مراتب درجات الإخلاص لله سبحانه، والتي لن تتحقق إلا بالقرب إليه والتعرف عليه - جلَّ وعلا - بنعمه التي لا تعد ولا تحصى.

يقول ابن عطاء في كتاب (التنوير): «كان هبوطًا في الصورة ورقيًا في المعنى»، أي أن ابن عطاء - رحمه الله - يعني أنها لم تكن عقابًا على خطيئة، ثم يأتي الأبناء للتكفير عنها.

وكما تاب الله سبحانه على آدم عليه السلام وزوجه، يتوب على المؤمن ويترقى من درجة إلى أعلى بالاستغفار والتوبة، والذلة والمسكنة، والخوف والرجاء، كما أخبر سبحانه: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (طه: ١٢٢).

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: ٢٠-٢٢).

إدريس عليه السلام
ثالث رسل العقيدة

(درس) بمعنى كتب وقيل سمي (إدريس) عليه السلام لكثرة دراسته لكتاب الله تعالى.

ومن أسمائه على المشهور: خنوخ وهرمس الهرامسة أي (الأمد الجرئ)، وأيضًا يقول علماء الآثار أن اسمه (آزريس) للتطابق التام بين سيرة كل منهما، مما يؤكد أنهما شخص واحد.

وقد ذكره القرآن في السورة التي اشتملت على كوكبة من الأنبياء: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٦-٥٧).

(شيث) لم يذكر الاسم صراحة في القرآن وقد أعطى النبوة بعد آدم عليه السلام، ومعناه: معين وهو من أبناء آدم عليه السلام.

وقد ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء أن النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم مر بإدريس عليه السلام وهو في السماء الرابعة.

وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه أن إدريس عليه السلام قال: مرحبًا بالنبي الصالح، والأخ الصالح، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فأخبره أنه إدريس عليه السلام.

وقد جاء في تفسير الجلالين: أنه جد أبي نوح وأنه حي في السماء الرابعة أو في الجنة بعد أن أذيق الموت ـ والله أعلم ـ.

وإدريس عليه السلام وكما يؤكد علماء الآثار أنه ولد في منف وقبل عصر الأسرات في مصر القديمة، وكان صديقًا نبيًا كما أخبر القرآن، ويقال أنه أول من لبس

المخيط، وأول من علم الناس الزراعة، وأول من نظر في علم النجوم والحساب، وأول من عرف مواسم الفيضان، وقد أخبر الرسول الخاتم ﷺ بهذه الأمور، فقد جاء في الحديث عندما سُأل من خط بالرمل، قال ﷺ: «**إنه كان نبي يخط به فمن وافق خطه فذاك**» (جزء من حديث أخرجه مسلم).

بل وإن علماء الآثار يرون أن ما جاء في عقائد المصريين القدماء عن الممات والبعث والثواب والعقاب والميزان، ولمماتهم عن الله الواحد، ما هي إلا من كلمات النبي إدريس عليه السلام، وخاصة وأن المراجع الفرعونية تؤكد أنه لم يعرف عبادة الشمس، وأنه كان لا يغرز إبرة إلا وقال: سبحان الله.

ويقال أن الله سبحانه أنزل عليه ثلاثين صحيفة، فكان لا يفتر عن قراءتها ليلاً ونهارًا، وأنه كان عنده شدة بأس وصلابة في أمره ونهيه لتعاليم الدين الذي أُنزل عليه، وأنه كان لا يأكل إلا من كسب يده.

وقد استشكل على علماء التفسير في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم:٥٧)، وذلك لأن غيره من الأنبياء في درجات أعلى منه، فإذا قيل لأنه كان حيًا في السماء الرابعة. فإن هذه الروايات لم تثبت من طريق مرفوعة قوية على العكس ما ذكر عن عيسى عليه السلام والذي رفع وهو حي على الصحيح.

وأما ما جاء أنه سأل صديقًا له من الملائكة فحمله بين جناحيه ثم صعد به، فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت، فقال له: أريد أن تعلمني كم بقى من عمر إدريس؟ قال: وأين إدريس؟ قال: هو معي، فقال: إن هذا لشيء عجيب، أمرت بأن أقبض روحه في السماء الرابعة، فقلت: كيف ذلك وهو في الأرض، فقبض روحه، ومن الواضح أن هذه الرواية من الإسرائيليات.

وقد عثر في أطواء بعض الكتب المقدسة[١] على فقرة من صحف إدريس عليه السلام، والتي لم يبق منها أي أثر سوى هذه الفقرة والتي تقول: «وقد تنبأ أخنوخ على هؤلاء الآثمة فقال: هوذا الرب يأتي في ربوات قديسية لينفذ القضاء عليهم ويبكت جميع المنافقين على أعمال نفاقهم».

ويتعجب علماء الآثار عند تصفحهم لما تركه قدماء المصريين من برديات تتحدث عن فكرة الخلود والحياة الأخرى، ويؤكدون أن استحواذ هذه العقيدة عليهم، ما هي إلا من تأثير كلمات إدريس عليه السلام عليهم، والتي كانت أول خطوة على الطريق الطويل الذي ستقطعه الرسالات لتأكيد وحدانية الله سبحانه على مر العصور.

وإننا لو رجعنا إلى الرسالة التي تركها قدماء المصريين في معابدهم، والتي تسمى «ثالوث العقيدة»، والتي تشتمل على التعريف بالإله الواحد خالق الكون ولم يكن بجواره أحد، والتعريف بالتشريعات والتي يمكن للجسد بها السيطرة على الجسد الفاني، أي السيطرة للروح على الجسد، ثم التعريف برحلة الجسد الباقي أي الروح إلى العالم الآخر في سفينة الشمس إلى قاعة التحضير لتواجه قضاة التطهير ثم يصل إلى محكمة الآخرة لتوجه إليه الأسئلة والتي تتوافق تمامًا

---

(١) هذا النسب لهذه الكتب المقدسة عند القراءة أنه من بقايا الكتب المقدسة وأنه من صحف إدريس عليه السلام يحتاج إلى سند ودليل وقد قال الأستاذ الدكتور/ محمد بكر إسماعيل في «قصص القرآن» (ص٤١) ـ دار المنار ـ: «وقد حكى بعض القصاص من أهل الكتاب وغيرهم ممن لا يقبل قولهم ولا يصح سندهم ـ في شأنه ـ أساطير هي إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة ذكر بعضها ابن كثير في البداية والنهاية وحكم عليها بالكذب والوضع».

ـ وقال العلامة الشعراوي ـ رحمه الله ـ: «وبغض النظر عن صدق أو عدم صدق هذه الروايات فإن المعيار الأول في ذكر الأنبياء هو ما قاله الحق سبحان في كتابه الكريم» «قصص الأنبياء» للشيخ الشعراوي ـ رحمه الله ـ (ص٣٧) ـ الدار العالمية للكتب والنشر.

مع ما نادت به كل الأديان التي جاءت بعد ذلك، وكلها تحث على الفضيلة ومكارم الأخلاق، وعدد هذه الأسئلة ٤٢ سؤالاً صيغت بأجمل الأساليب وأرقاها، ومنها:

١ ـ عشت أجلك الذي حدده لك الإله كاملاً، فهل راعيت حق بدنك عليك كما رعاك الإله في شبابك؟

٢ ـ هل حفظت جسدك طاهرًا كرداء نظيف لم تلوثه القاذورات؟ وهل تغلبت على شهوات جسدك؟

٣ ـ هل امتدت يدك إلى سرقة ما ليس لك؟ وهل قتلت نفسًا بغير حق؟

٤ ـ هل نظرت إلى من هو أغنى منك أو أشهر منك بعين الحسد أو الحقد؟ وهل سبق أن مزقت الغيرة قلبك بمخالبها؟

٥ ـ هل أهملت زرعك وأرضك ومحراثك وقت الزرع أو البذر؟ وهل تعاملت بالعدل؟

٦ ـ هل اعترفت بالجميل لكل من صادقك في رحلة الحياة سواء كان إنسانًا أو حيوانًا أو شجرة؟

٧ ـ هل تصدقت بخبزك على المحتاجين وبثمار حقلك على الجائعين؟

٨ ـ هل عف لسانك عن قول البهتان وشهادة الزور؟ وهل تعاملت في الأسواق بالأمانة؟ ولما لم تقسط في الميزان؟

وهكذا في بقية الأسئلة والتي تحث على الصدق والأمانة والعدل والرحمة والحلم والتواضع والعفو وغيرها من محاسن الأخلاق.

وقد ذكر النبي الخاتم ﷺ سؤال الملكين في القبر وجعلها من مقومات الإيمان، ومع إنها عن ثلاث إلا أنها اشتملت على جوهر الدين كله.

وقد بين القرآن أن المؤمن يثبته الله سبحانه بالقول الثابت عندما يسأله الملكان عن: ربه ودينه ونبيه، فيجيب بالصواب: الله سبحانه وتعالى ربي، والإسلام ديني، ومحمد ﷺ رسولي.

تلك هي قصة إدريس عليه السلام والذي ذكره القرآن مع من أنعم الله سبحانه عليهم، وأخبر عنهم أن من جملتهم من هو ساجد وباك خشية من الله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (مريم ٥٨).

ولهذا أجمع أهل العلم على شرعية السجود اقتداءً بهم واتباعًا لمنوالهم، ومن بلاغة القرآن أنه جمع بين الأنبياء جميعًا في آية واحدة وإن كان فرق بين أنسابهم، وذكر خاتمهم وإمامهم وأفضلهم محمد ﷺ في قوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾، عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه.

ويرى العلماء أن العبرة من قصته عليه السلام أن الموت لا يفر منه أحد، وعليه فإنه يجب على المرء أن يكون على طاعة دائمًا، لأن الموت يأتي في وقت لا يعلمه، ومكان يجهله، يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٤).

نـوح عليه السلام

العبد الشاكر الحامد

(نـوح) من البكاء والتناوح، و(نوح) ينصرف مع العـجمة لأنه اسم على ثلاثة أحرف أوسطه سـاكن، ولأن خففـته عادلت أحـد الثقلين، وقيل: إنه كـان دائمًا ينوح ويبكي، ولكثرة نوحه سمي نوحًا.

(نـوح) من الحـمد لأنه كـان يحمـد الله على كل شيء، وقيل مـعناه: نواح وراحة وهو من الآباء، وأيضًا معناه: الراحة والتعزية.

ويقال أن اسمه (عبد الغفار) ولكن القـرآن سماه نوحًا لكثرة نوحه على نفسه في طاعة ربه، (الجودي): ج و د - أي الشيء الجيد، وهو جبل بأرض الجزيرة.

وكل هذه المعاني جـاءت في أكثر مـن موضع في القرآن، بل وجـاءت سورة بأكملـها تحمل اسـمه، وقد جـاء في تفسـير قولـه تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء: ٣)، أنه كان يحمد الله سبحانه على طعامه وشرابه ولبسه وشأنه كله.

وهو أقدم نبي رسول ذكره الوحي ووصف جحـود قومه وتكذيبهم له، وما كابده منهم من عناء حتى أغرقهم الله سبـحانه بالطوفان، ولم يذكر عن نبي قبله ما ذكره عنه، فالقرآن عندما يذكر آدم عليه السلام لا يتحدث إلا عن الخلق والهبوط من الجنة إلى الأرض وما حدث بين ابنيه، ولم يذكـر شيئًا عن «شيث» عليه السلام، وأيضًا لم يذكر تفـصيلاً لقـصة إدريس عليه السلام، ولكنه عندما بدأ يقص قـصة نوح عليه السلام، يذكر الكثير عن تفاصيلها.

وتقول الأسفـار القديمة: إنَّ نوحًا عليه السلام كان عمره سـتمائة عام عندما حدث الطوفان، أي أنه ظل يدعو قومه أقل من هذه الأعوام بكثير.

يقول أحد أدعياء الثقافة من العلمانيين: أن هذا الخبر الذي جاءت به الأسفار القديمة لا نصدقه ولا نكذبه والذي يفصل فيه هو العلم إما إثباتًا أو نفيًا.

وكأنه أراد أن يجعل العلم بمادتيه واحتمال الصحة والخطأ فيه، هو الفيصل بين المحفوظ والمحرف . . !!

والرأي أن الأخبار الإسرائيلية تنقسم إلى ثلاث أقسام: القليل منها صحيح لموافقته الكتاب والسنة فنصدقه، والكثير منها معلوم البطلان لمخالفته ما جاء في الكتاب الحق، وأما الثالث فهو الذي ينطبق عليه التصديق أو التكذيب إن كان أمرًا لم يذكره القرآن الكريم والحديث الصحيح.

وعليه فمادام الكتاب الحق أخبر أنه عليه السلام أمضى بين قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ـ مخالفًا ما تقوله الأسفار القديمة ـ فهذا هو الذي نصدقه، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ١٤).

ومع إن دعوته عليه السلام كانت ككل دعوة الأنبياء: إيمان وتقوى وطاعة، إلا إنهم تمادوا في عصيانهم على الرغم من كل الدلائل التي ساقها لهم، حتى لم يعد يرجى منهم توبة لكبريائهم وطغيانهم، فكانوا يفرون منه، ويسدون آذانهم حتى لا يسمعوه، وتنكروا حتى لا يعرفهم، وكان كل ما انقرض جيل أوصى من بعده بعدم الإيمان برسالته ومحاربته ومخالفته، ولشدة ما فيه من الحزن والألم توجه إلى ربه سبحانه بالدعاء ينوح باكيًا، كما أخبر القرآن: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ (القمر: ١٠).

وكان الطوفان والذي ذكره القرآن في أكثر من موضع، والذي فصلته سورة «هود» أكثر من أي موضع آخر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠).

وقد جاء ذكر الطوفان في العديد من الأساطير والروايات لعدد من الشعوب القديمة وفي أجزاء متفرقة من العالم القديم، وكلها واهية وتتعارض مع الصحيح، وخاصة وأن فيها الكثير من المنافاة لأدب الإسلام وأخلاقه[1].

وعلى الرغم من تعدد قصة الطوفان إلا أنها لا تعد شيئًا يذكر أمام روعة وجمال القصة في القرآن والذي انفرد بقصة ابن نوح الذي خالف أباه، وما دار بينهما من حوار، ثم كان من المغرقين، وقد تحاش القرآن ذكر أوصاف السفينة، ولكنه ركز على إنصاف نبيه عليه السلام ومدحه وذم من خالفه، لأنه من أكبر الأنبياء أولي العزم بعد خاتم النبيين ﷺ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٤٤).

ويقال: إنَّ جميع جبال الأرض تشامخت يوم الغرق، وأما جبل الجودي تواضع لله فلم يغرق وأرسيت عليه السفينة.

وأما الآية والتي تناولها العديد من المفسرين، وحاول حديثًا ممن يتمسحون بما يسمونه التفسير العصري للقرآن أن يحملوا الآية أكثر من معناها، يقول تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ (نوح: ٢٥).

جاء في تفسير الجلالين: عوقبوا بالنار عقب الإغراق تحت الماء.

وقال النسفي في تفسيره: هو عذاب القبر.

---

(١) من أقدم هذه القصص ما جاء في أقدم حضارة ظهرت على وجه الأرض في بلاد العراق وكانت تسمى «أوروك» وموقعها بين النهرين، وقصة الطوفان جاءت تحديدًا في الأدب السومري في الألف الثالث قبل الميلاد.

- وأيضًا جاء في سطور قليلة ذكر طوفان ابتلع قارة بأكملها وربما تكون «أطلس» في حضارة قديمة تسمى الحضارة النطوقية غربي القدس والتي نشأت بها فلسطين أقدم القرى الدائمة في العالم القديم أي قبل أن يظهر اليهود كعشيرة أو شعب بآلاف السنين.

وأما الآلوسي فيرى أنها نارالخزي والخذلان.

وأختار الضحاك أنهم كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب آخر.

ويرى أكثر المفسرين أنها نار جهنم يوم القيامة لأن كل ما هو آت فإنه قريب.

هذه قصة النبي العبد الحامد الشاكر والذي ظلمته الإسرائيليات عندما صورته ـ كذبًا وبهتانًا ـ بأنه غرس كرمًا وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه.

وكما تشهد أمة النبي الخاتم ﷺ على شهادة الصادق الأمين بأنه عليه السلام بلغ الحق على أكمل وجه، نشهد ـ الآن ـ بأن ما يهذي به أهل الكتاب هو الكذب والضلال والبهتان وأنهم من دعا عليهم بزيادة هلاكهم لظلمهم له، وندعو الله سبحانه أن نكون من المؤمنين الذين دعا لهم بالمغفرة: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (نوح:٢٨).

لقد كرم الله سبحانه عبده ونبيه عليه السلام حين أمره بالهبوط مصحوبًا بسلامه وبركاته: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (هود:٤٨).

ويرى العلماء العبرة من قصته عليه السلام الصبر والعزيمة في الدعوة لدين الله سبحانه، فقد استمر يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ليلاً ونهارًا ولم ييأس، وحتى أنه بعد الطوفان ظل يعلم المؤمنين أحكام الدين حتى لقى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٥).

هـود عليه السلام

الحكمة ومعاينة الحق

(هـ و د) التهدد هو العمل الصالح.

(هاد) تاب ورجع إلى الحق، والتهود هو التوبة والعمل الصالح.

و(هود) اسم نبي وهو أول من تكلم العربيـة، ويقال: أن قبره في اليـمن كما روى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنه حج البيت العـتيـق كغيـره من الأنبياء، وهو أحد أنبياء أربعـة من العرب ومنهم صالح وشعيب ومحـمد - عليهم صلوات الله وسلامه، كما ذكر ابن حبان في حديثه عن الأنبياء والمرسلين.

(ارم) قوله تعالى: ﴿بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ (الفجر: ٦-٧)، فمن لم يضف جعل (إرم) اسمه ولم يصرفه لأنه جعل عـادًا اسم أبيهم وأرم اسم القبيلة وجعله بدلاً منه، ومن قرأ بالإضافة ولم يصرفه جعله اسم أمهم أو اسم بلدة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (الفجر: ٦-٨).

تلك هي عاد الأولى التي طغت فدمرها الله - سبحانه - ولقد قطعت شوطًا هائلاً في الحضارة، ولابد أنهـا كانت أعظم من الحضارة الفرعونيـة التي حيرت العلماء حتى يومنا هذا، لقد وصفهم القـرآن بأنها ليس لها مثيل في البلاد، ومع كل هذا الرقى عبدوا الأصنام . . !! كانت بلادهم من أخصب بلاد الله - سبحانه - ذات مياه وأشجار وزروع لاسيمـا في حضرموت من بلاد اليمن، وكانت «عاد أرم» نحو ثلاث عشرة قبـيلة فطغوا وتكبروا، فأرسل الله إليهم هودًا عليه السلام، وقد وصف القرآن مبلغ طغيانهم وفجورهم وتكذيبهم، واستخفافهم بالأوامر الإلهية.

وكان هود عليه السلام يقدم لهم النصيحة بالتمسك بما فيه خير لهم وهو «العمل الصالح» كما جاء في القرآن: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف: ٦٨).

وقد بين القرآن أنه عندما تقدم بالنصح لا يريد منهم أجراً: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (هود: ٥١).

ومع هذا كان ردهم: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ٥٣).

وهكذا أصروا على الكفر إلا نفراً قليلاً منهم، وقد انضم إلى كفرهم مآثم ومناكر غاية في البشاعة: ارتفاع قصورهم تظاهراً بالغنى والثروة، والعبث والإفساد في الأرض، والاستهزاء بالغرباء إذا قصدوا نبيهم للاستماع إليه، فكان لابد أن ينزل بهم أشد العقاب، كما أخبر القرآن: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٦-٨).

ومعنى «حسومًا»[١]: أي استأصلتهم وأبادتهم، وكانت شؤمًا عليهم، فكانت تدمر بلا رحمة فلا تبقى شجراً ولا ثمراً.

ويقال: إن هذه الأيام هي «أيام العجوز» المعروفة بشدة البرد القارس في آخر إبريل وأول مارس، وقد قيل: أن عجوزاً من قومهم توارت من الخوف فانتزعتها في اليوم الثامن.

---

(١) معنى حسومًا: أي متتابعات الهبوب بلا فاصل كتتابع الكي القاطع للداء، «أيسر التفاسير» للعلامة أبو بكر الجزائري (ص: ١٤٠٠).

وكثيرًا ما يقرن القرآن بين ذكر عاد وثمود، وخبر الأمتين لا يعرفهما أهل الكتاب، ولم تذكر التوراة شيئًا عن أخبارهما، وإن كان القرآن أخبر أن موسى عليه السلام قال لقومه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (إبراهيم: ٩).

«عاد إرم» كانت أخصب البلاد وأكثرها جنانًا وأعظمها حضارة، أقاموا مآخذ الماء وبنوا القصور العالية الضخمة، وبنوا العديد من السدود بين مضايق الجبال لتغذية الترع التي تروي المزارع الهائلة.

أهل الإلحاد قالوا: إنها مدينة خيالية ليس لها أساس من الحقيقة، وإنما هي من الأساطير، وأهل الكفر والضلال قالوا: إنها مدينة من ذهب وفضة وهي تنتقل كل حقبة من الزمن في البلاد، لأنها تدور في الأرض.

والرأي الأول ـ لا دليل عليه ولا برهان يعول عليهما، وما قولهم هذا إلا حقدًا وطعنًا في القرآن الذي أخبر عنهما.

وأما الرأي الثاني ـ فهو ضلال وأقوال باطلة لا تستقيم مع العقل، وما هي إلا ترديدًا ساذجًا لمن على شاكلتهم من الدهرية والزنادقة والدورية، وهم جميعًا يجمعهم الخيال الفاسد.

والآن يبقى السؤال الهام: ماذا يقول العلم عن (مدينة عاد إرم) والتي ذكرها القرآن بهذه الدقة المتناهية؟ لقد وجد أنها مذكورة في تاريخ بطليموس، بل وإن اسم (عاد) مقرون باسم (إرم) في كتب اليونان، وفي السنوات الأخيرة عثر المنقبون في الحجاز الشمالي على آثار منقوش عليها باليونانية ما يشير إلى قبيلة باسم (العادراميون) ولا غرو أن يكون هؤلاء هم الذين سماهم العرب (عاد إرم).

وأيضًا وجد في كتب (السكندري) وهو عالم في الفلك والجغرافيا وقد بزغ نجمه في مكتبة الإسكندرية ـ ١٢٧م إلى ١٤٥م ـ ما يشير إلى حضارة قديمة في شبه الجزيرة العربية وقد وصفها بأنها لا شبيه لها في كل ما كتب عن البلاد التي زارها أو قرأ عنها.

ثم جاء دور العلم الحديث يؤكد أن ما أشار إليه السكندري ليس قصصًا من وحي الخيال وإنما هي حقيقة ثابتة، فقد صورت الأقمار الصناعية هذه الأماكن والمسافات بعيدة في باطن الأرض، فوجدت بقايا طرقات وقصور وأنهار، وبهذا أثبت العلم أن القرآن ما هو إلا أنوار يتلألأ فيها وحي السماء ولا يراها إلا المؤمن، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ (الروم: ٥٣).

وقد اسهب المفسرون القدامى في الدروس المستفادة من قصته عليه السلام ومنها: القوة الاقتصادية وحدها لا تحقق التمكين في الأرض، بل إن سوء استخدامها يؤدي للإنهيار والضياع، والطغيان نهايته الفناء والدمار، وإذا كان ـ سبحانه ـ يمهل الظالم ويستدرجه من حيث لا يعلم وحتى يظن أنه صاحب الأمر، إذا بالعذاب ينزل عليه وهو في أوج جبروته، ليكون عبرة لمن يعتبر، ورحمة للمظلومين.

وأما أهم هذه الدروس فهو التحذير من سوء الموارد عن طريق العبث من فئة قليلة بإقامة المباني الفاخرة دون الحاجة إليها ولمجرد التفاخر والخيلاء..!!

فما بالك بمن بلغ بهم العبث إلى منتهى السفه، فاشترى سرابًا على سطح القمر للسكن فيه، وأعطى الملايين لمن لا يملك ليطلق اسمه على أحد النجوم،

وإخوانهم يتعرضون للموت جوعًا وعطشًا، وعلى يد من؟! على يد من باع لهم الوهم!![1].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ (التوبة: ٦٥).

(١) وقد سبق القرآن كافة النظم الوضعية حين يقرر سنة كونية وحقيقة شرعية في عقاب من يريدون إبقاء حالة الترف لهم وعدم أراء تبعات ما هم فيه من خير ونعيم لمن يشاركونهم العشيرة في الأرض، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء: ١٦).

صالح عليه السلام
الناصح الأمين

(صالح) ـ ص ل ح ـ الصلاح ضد الفساد.

و(صالح) عليه السلام كان أجمل أهل زمانه وأفصحهم لسانًا، وكان يعيش على طريقة المسيح عليه السلام، متقشفًا لا يتخذ مسكنًا ولا بيتًا، يسيرحافي القدمين إلا من الخفين، وكان كثير البكاء وخاصة على الناقة، فأتى جبريل عليه السلام وبشره بأنها ستبعث يوم القيامة، فطابت نفسه، واستمر مقيمًا بمكة حتى مات ودفن بها.

(ثمود) ذكرت في جملة البلاد التي ذكرها مؤرخو اليونان ويسمونها (ثموديني) وقد وجدت على أطلال مدائنها كتابات ونقوش تدل على هلاكهم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تدخلوا مساكن الذي ظلموا أنفسهم ـ إلا أن تكونوا باكين ـ أن يصيبكم مثل ما أصابهم**» (رواه البخاري).

وقد ذكر ابن إسحق في «المبتدأ» وغيره قصته عليه السلام مع قومه، والتي تتلخص في أنه دعاهم إلى عبادة الله سبحانه، فآمنت طائفة منهم وكفر أكثرهم وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها الله سبحانه حجة عليهم، فكان الهلاك لهم، وقد توجه نبيهم عليه السلام بالحديث إليهم حزينًا متألمًا لحالهم: ﴿**فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾ (الأعراف: ٧٩)، ﴿**وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ**﴾ (الفجر: ٩).

وهي مدائن صالح المشهورة ذات البيوت المنحوتة في الجبال نحتًا في غاية الإحكام وحسن الصنعة، وكان أهل ثمود أصحاب حضارة وعمارة وثراء، ولم

يكونوا كالأعراب الذين يرتحلون لطلب العشب. وقد وجد علماء الآثار على أطلالهم نقوشًا مكتوبة باللغة الآرمية لغة سادتهم النبطيين على الرغم من أن لغتهم الأصلية هي الحميرية لغة اليمن القديم، ووجدوا أيضًا فروع من القلم المسند في عدة أماكن من بلاد الحجاز، وهذا ما يؤكد صدق القرآن الذي لا يحتاج لتصديق أحد من البشر، ويؤكد - أيضًا - هذا الاكتشاف تكذيب أهل الكتاب في ادعائهم بأن قصة ثمود من أساطير الأولين وليس لها وجود.

ومن أهم ما تعلمه المسلمون من قصة صالح عليه السلام ما بينه النبي الخاتم ﷺ عندما طلب كفار مكة - سخرية واستهزاء - بأن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعوا مكانها، وقد منع - سبحانه - عنهم تلك الآيات، لأنهم لو كذبوا بعدها لاستحقوا العذاب[1]، ورسول الله ﷺ اختار باب التوبة والرحمة.

يقول سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء: ٥٩).

وقد جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «**لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فأخذتهم الصيحة**» (جزء من حديث أخرجه أحمد والحاكم وابن حبان).

---

(١) أو لعلم الله في سابق علمه أن هؤلاء القوم لم يؤمنوا فلا يجدي منهم نصح ولا تذكير وإلا كان هذا عبثًا لا يليق بالخالق سبحانه وتعالى، راجع تفسير العلامة السعدي في تفسير سورة الإسراء (ص٤١٣).

- لأنهم لو كذبوا بعدها لاستحقوا العذاب، وما كان الله ليهلك أمة النبي ﷺ بسنة عامة كما دعا بذلك النبي في الحديث.

وقد أسهب المفسرون في وصف الناقة فهي: عظيمة عشراء على الوجه الذي طلبوه، وهي ذات منظر عظيم، وقد أضافها نبيهم بقوله «ناقة الله» إضافة تشريف وتعظيم، ومع أن الذي قتلها أحدهم، فإن العمل نسب إليهم جميعًا، لأنه كان برضاهم واتفاق جميعهم على اختيار طريق الشر واستبعاد الحق، وطمعًا في أن يكون الماء كله لهم، فكان العذاب كما أخبر القرآن: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر:١٣).

ذكر المفسرون الكثير في تفسير الآية والتي جاءت لتبين ما أصاب أمم ثلاثة طغوا وأفسدوا، وتجاوزوا الحد في الإساءة إلى قومهم وإلى غيرهم، فضلاً عن تكذيبهم لرسلهم وكفرهم بربهم.

يقول الفراء: هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب، ثم تأتي الآية التي بعدها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (الفجر:١٤)، لتعليل ما قبلها من التعذيب، وفيها استعارة تمثيلية لبيان أنه سبحانه يحصي أعمال العصاة لينتقم منهم، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (الأعراف:١٨٢-١٨٣).

ولكن لماذا استثنى الله سبحانه مصر الفرعونية من الدمار الذي لحق بعاد وثمود؟

هل لأن النبي الكريم يوسف عليه السلام قال لأبويه وأخوته: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف:٩٩)، فكان حقًا عليه ـ سبحانه ـ ألا يرد كلمة نبيه إلى يوم القيامة؟ أم أنه ـ سبحانه كان يعلم وهو علام الغيوب ـ جلَّ وعلا ـ أنها ستكون في رباط إلى يوم القيامة كما أخبر آخر الأنبياء وخاتمهم صلى الله عليه وسلم؟

سؤال لـم يتبـادر إلى ذهن أحد من قـبل، ويحتـاج إلى إجابة من علمـائنا الأفاضل، ومن إعجاز القرآن أن قصة صالح عليه السلام والتي يمكن كتابتها في مجلد ضخم، لخصتها سورة من قصار السور، وجاءت بعد أطول قسم في القرآن.

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (الشمس: ١١-١٥).

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾، جاء في تفسير الآية الأخـيرة من سورة «الشمس» المكية وترتيبهـا حسب المصحف (٩١) وحسب نزول الوحي (٢٦) الكثـير من الأقوال قديمًا وحديثًا.

يقول الإمام محمد عـبده: الله في عزته وجبروته أهلك هؤلاء المكذبين ولا يخاف عـاقبة إهلاكـهم لأنه لا هو ظالم فيـخيفـه الحق، ولا هو ضعـيف فيناله المكروه ـ تعالى الله عن ذلك علوًا كـبيرًا ـ من تفسيـر جزء عم، وكأن هذا الذي سمعته في خبر ثمود ما يدلك على جواب القسم، كأنه قال: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (الشمس: ١)، إلى آخر القسم وعدده (٩): الشمس والضـوء والقمر والنهار والليل والسماء والأرض والنفوس والنفس لينزلن بكفار مكة مثل ما نزل بثمود.

ولولا أنه ـ سبحـانه ـ رفع العذاب عن هذه الأمة، لرأيت عاقبـة من اختار الكفر على الهدى، يقول سـبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (فصلت: ١٧).

هذه قصة صالح عليه السلام النبي العابد التـقي الزاهد خرج على أصحابه مـتكئًا على عصاه، حافي القدمين، عليه جبـة من الصوف، الدموع تملأ عينيه، مصفر

الوجه من الجوع، يابس الشفتين من العطش، حزينًا على قومه وقد أخذتهم الزلزلة الشديدة من الأرض، والصيحة من السماء، لأنهم لم يصدقوا ما قاله لهم نبيهم الناصح الأمين عليه السلام.

وتلك عاقبة الاستهزاء والسخرية بمن ينصح بالرجوع إلى الدين والتمسك بالثوابت الإيمانية، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ١٨١-١٨٤).

﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، استثنى الله سبحانه أمة محمد ﷺ من بين الأمم لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر إلى يوم القيامة.